شبهات وردود

قصة حواري عيسى عليه السلام

د.ماجد كارم

قصة حواري عيسى عليه السلام

استدل بعضهم بقوله تعالى: (إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) [المائدة: ١١٢].

أن القوم شكوا في قدرة الله او قالوا كفرا ومع هذا فقد عذرهم الله

فأقول وبالله التوفيق-: الوجه_الأول: جاءت القراءة(هَلْ تَسْتَطِيعُ رَبَّكَ) بالتاء وفتح الباء، قرأ بها علي بن أبي طالب، ومعاذ بن جبل، وعائشة بنت أبي بكر، وابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد، والكسائي وغيرهم، فتُحمل عليها القراءة الأخرى..

قال الطبري: "قرأ ذلك جماعة من الصحابة والتابعين: (هل تستطيع بالتاء (ربَّك) بالنصب، بمعنى: هل تستطيع أن تسأل ربك، وهل تستطيع أن تدعو ربك؟ أو هل تستطيع وترى أن تدعوه؟ وقالوا: لم يكن الحواريون شاكين أن الله تعالى ذكره قادر أن ينزل عليهم ذلك، وإنما قالوا لعيسى: هل تستطيع أنت ذلك؟".اهـ [جامع البيان ٤/٣١١٣].

وقال القرطبي: "قراءة الكسائي وعلي وابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد: (هل تستطيعُ) بالتاء (ربكَ) بالنصب".اهـ [الجامع في أحكام القرآن ٨/٢٨٤].

عن ابن أبي مليكة قال: قالت عائشة: كان الحواريون لا يشكون أن الله قادر أن ينزل عليهم مائدة، ولكن قالوا: يا عيسى هل تستطيع ربك؟".اهـ [أخرجه ابن جرير في تفسيره ٤/٣١١٣، وانظر تفسير ابن أبي حاتم ٤/١٢٤٣، والنكت والعيون للماوردي ٢/٨٢، ومعالم التنزيل للبغوي ٢/٣٢٣].

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه، قال: "أقرأَنا النبي صلى الله عليه وسلم: (هل تَستطيعُ ربَّكَ) قال معاذ: وسمعت النبي صلى الله عليه وسلم مراراً يقرأ بالتاء: (هل تستطيع ربك)".اهـ [أخرجه بنحوه الترمذي (٢٩٣٠)، والحاكم ٢/٢٣٨، وانظر: الجامع لأحكام القرآن ٨/٢٨٦].

وعن سعيد بن جبير أنه قرأها كذلك: (هل تستطيعُ ربك) وقال: تستطيع أن تسأل ربك؟ وقال: ألا ترى أنهم مؤمنون؟ [أخرجه ابن جرير في تفسيره ٤/٣١١٣، وذكره ابن حبان في الثقات ٦/٢٢٣، والسيوطي في الدر ٣/٢٣١، وعزاه إلى ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وأبي الشيخ وابن مردوية، وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٢/٢٥٩، والقرطبي في تفسيره ٦/٣٦٥].
وقال الفراء: "معناه: هل تقدر أن تسأل ربك".اهـ [زاد المسير ٢/٢٧٧].
وقال الزجاج: "المعنى: هل تستدعي طاعة ربك فيما تسأله".اهـ [معاني القرآن للزجاج ٢/٢٢٠، والنكت والعيون ٢/٨٢، وانظر: الجامع لأحكام القرآن ٨/٢٨٦].

وقال القرطبي "وقيل: هل تستطيع أن تدعو ربك أو تسأله، والمعنى متقارب، ولا بدِّ من محذوف، كما قال: (وسئل القرية) [يوسف: ٨٢]..".اهـ [الجامع لأحكام القرآن ٨/٢٨٦].

قلت: وهذا الذي يظهر لي في مثل أولئك الحواريين رضي الله عنهم، فإن قال قائل: لماذا استُعظم قولهم إذن؟! فيُقال: لأن ذلك منهم كان مسألة آية، والآية يسألها الأنبياء من كان بها مكذباً أو شاكاً أو نحوه، وهم ليسوا كذلك.. كما كانت مسألة قريش نبينا صلى الله عليه وسلم أن يحول لهم الصفا ذهباً، ويفجر فجاج مكة أنهاراً، وكما كانت مسألة صالح الناقة من قومه، ومسألة شعيب أن يسقط كِسفاً من السماء ممن أرسل إليهم..إلخ

وقال ابن كثير "وذكر بعضهم أنهم إنما سألوا ذلك لحاجتهم وفقرهم، فسألوا أن ينزل عليهم مائدة كل يوم يقتاتون منها، ويتقوون بها على العبادة. قال: (اتقوا اللّه إن كنتم مؤمنين)، أي: أجابهم المسيح –عليه السلام– قائلاً لهم: اتقوا اللّه، ولا تسألوا هذا، فعساه أن يكون فتنةً لكم! وتوكّلوا على اللّه في طلب الرزقِ إن كنتم مؤمنين. (قالوا نريد أن نأكل منها) أي: نحن محتاجون إلى الأكل منها، (وتطمئن قلوبنا) إذا شاهدنا نُزُولها رِزقاً لنا من السماء (ونعلم أن قد صدقتنا) أي: ونزداد إيماناً بك وعلماً برسالتك، (ونكون عليها من الشاهدين) أي: ونشهد أنها آية من عند اللّه، ودلالة وحجة على نبوتك وصدق ما جئت به".اهـ [تفسير القرآن العظيم ٢/١٥٠-١٥١].

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي عثمان النهدي عن سلمان الخير أنه قال: "لما سأل الحواريون عيسى ابن مريم المائدة، كره ذلك جداً وقال: اقنعوا بما رزقكم اللّه في الأرض، ولا تسألوا المائدة من السماء، فإنها إن نزلت عليكم كانت آية من ربكم، وإنما هلكت ثمود حين سألوا نبيهم آية، فابتلوا بها حتى كان بوارهم فيها..".اهـ

الوجه_الثاني:

قال السدي: "المعنى هل يُطيعُكَ ربُّك إن سألته أن يُنزل".اهـ [أخرجه الطبري ٩/١٢١]. قال الإمام القرطبي رحمه اللّٰه: "فيستطيع بمعنى يُطيع، كما قالوا: استجاب بمعنى أجاب، وكذلك استطاع بمعنى أطاع".اهـ [الجامع في أحكام القرآن ٨/٢٨٤، وانظر تفسير البغوي ٢٧٧].

وقال الماوردي "معناه هل يستجيب لك ربك ويطعيك".اهـ [النكت والعيون ٢/٨٢].

وقال ابن الأنباري "لا يجوز لأحدٍ أن يتوهم أن الحواريين شكوا في قدرة اللّٰه، وإنما هذا كما يقول الإنسان لصاحبه: هل تستطيع أن تقوم معي، وهو يعلم أنه مستطيع..".اهـ [زاد المسير ٢/٢٧٧].

وقال القرطبي "إن القوم لم يشكوا في استطاعة الباري سبحانه؛ لأنهم كانوا مؤمنين عارفين عالمين، وإنما هو كقولك للرجل: هل يستطيع فلان أن يأتي. وقد علمت أنه يستطيع فالمعنى: هل يفعل ذلك وهل يجبني على ذلك أم لا؟ وقد كانوا عالمين باستطاعة اللّٰه تعالى لذلك ولغيره عِلم دلالة وخبر ونظر فأرادوا علم معاينة كذلك كما قال إبراهيم صلى اللّٰه عليه وسلم: (رب أرني كيف تحيي الموتى) [البقرة: ٢٦٠] على ما تقدم، وقد كان إبراهيم عَلِمَ ذلك علم خبر ونظر، ولكن أراد المعاينة التي لا يدخلها ريبٌ ولا شبهةٌ؛ لأن عِلم النظر والخبر قد تدخله الشبهةُ والاعتراضات، وعلم المعاينة لا يدخله شيء من ذلك؛ ولذلك قال الحواريون: (وتطمئن قلوبنا) كما قال إبراهيم: (ولكن ليطمئن قلبي) [البقرة: ٢٦٠].

قلت: هذا تأويل حسن.. قال ابن الحصار: وقوله سبحانه مخبرا عن الحواريين لعيسى: (هل يستطيع ربك) ليس بشك في الاستطاعة، وإنما هو تلطف في السؤال وأدب مع اللّٰه تعالى إذ ليس كل ممكن سبق في علمه وقوعه ولا لكل أحد، والحواريون هم كانوا خيرة من آمن بعيسى فكيف يظن بهم الجهل باقتدار اللّٰه تعالى على كل شيء ممكن".اهـ [الجامع في أحكام القرآن ٨/٢٨٥].

الوجه_الثالث:

إن من العلماء من قال بتكفيرهم بذلك القول، فاستتابهم نبيهم: (اتَّقُواْ اللّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) [المائدة: ١١٢]، ثم تابوا واتقوا كما في قوله تعالى: (قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللّهِ..) [الصف: ١٤].

قال الطبري : "فبين إذ كان ذلك كذلك أن الله تعالى ذكره قد كره منهم ما قالوا من ذلك واستعظمه وأمرهم بالتوبة ومراجعة الإيمان من قيلهم ذلك والإقرار لله بالقدرة على كل شيء وتصديق رسوله فيما أخبرهم عن ربهم من الأخبار، وقد قال عيسى لهم عند قيلهم ذلك له استعظاما منه لما قالوا: (اتقوا الله إن كنتم مؤمنين) ففي استتابة الله إياهم ودعائه لهم إلى الإيمان به وبرسوله صلى الله عليه وسلم عند قيلهم ما قالوا من ذلك واستعظام نبي الله صلى الله عليه وسلم كلمتهم الدلالة الكافية من غيرها على صحة القراءة في ذلك بالياء ورفع الرب".اهـ

إلى أن قال: "قد أنبأ هذا من قيلهم أنهم لم يكونوا يعلمون أن عيسى قد صدقهم ولا اطمأنت قلوبهم إلى حقيقة نبوته فلا بيان أبين من هذا الكلام في أن القوم كانوا قد خالط قلوبهم مرض وشك في دينهم وتصديق رسولهم وأنهم سألوا ما سألوا من ذلك اختبارا".اهـ [جامع البيان ٤/٣١١٤].

....

ففيما أخبر اللّٰه تعالى عن الحواريِّين في قوله: ﴿هَل يَستَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَينَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ ﴾[المائدة: ١١٢] فإنَّ ما عليه الجمهورُ من المفسِّرين أنَّ الحواريين لم يحدث لهم شكٌّ في قدرة اللّٰه تعالى حتى يُعْذَروا، وإنما هو تلطُّفٌ في العبارة والسؤال وأدبٌ مع اللّٰه تعالى.

ووجه تقدير سؤالهم على حالتين:

الحالة الأولى: على قراءة عليٍّ وعائشة وابن عبَّاسٍ ومعاذ بن جبلٍ رضي اللّٰه عنهم، وجماعةٍ من التابعين كمجاهدٍ وسعيد بن جبيرٍ وغيرهم: «هل تَستطيع» بالتاء، «ربَّك» بنصب «ربَّ»، فيكون المعنى: هل تستطيع أن تدعوَ ربَّك وتسألَه أن يُنَزِّل مائدةً من السماء، وهي قراءة الكِسائيِّ، فلم يكن الحواريون شاكِّين أنَّ اللّٰه تعالى قادرٌ أن يُنَزِّل عليهم ذلك، وإنما قالوا ذلك لعيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام.

الحالة الثانية: وعلى قراءة الباقين: «هل يَستطيع ربُّك»، فإنَّ تقدير معنى السؤال: الفِعلُ والإجابةُ، وهذا مشهورٌ في كلام العرب، مثل قول الرجل لغيره: هل يستطيع فلانٌ أن يأتيَ أو يساعدني؟ وقد علمت أنه يستطيع، فيكون المعنى: هل يفعل ذلك؟ وهل يجيبني إلى ذلك؟. وابن تيمية ـ رحمه اللّٰه ـ ـ في مَعْرِض بيان الاستطاعة الكونية القدرية المقارِنة للفعل التي هي مناط القضاء والقدر ـ قال: «وكذلك قول الحواريين: ﴿هَل يَستَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَينَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ إنما استفهموا عن هذه القدرة، وكذلك«ظنَّ يونس أن لن نقدر عليه»، [أي: فُسِّر] بالقدرة، كما يقال للرجل: هل تقدر أن تفعل كذا؟ أي: هل تفعله؟ وهو مشهورٌ في كلام الناس».

أمَّا المقصود من العلم في قوله تعالى مخبرًا عنهم: ﴿وَنَعلَمَ أَن قَد صَدَقتَنَا ﴾ [المائدة: ١١٣]، فلم يشكُّوا في صدق رسالة نبيِّهم عليه السلام، وإنما حصل لهم علمُ اليقين بالدليل والخبر، فأرادوا عِلْمَ معاينةٍ ونظرٍ في آيةٍ حِسِّيةٍ تطمئنُّ قلوبُهم بمشاهدتها، ويزدادون إيمانًا ويقينًا بالمعاينة التي لا يدخلها

رَيبٌ ولا شُبهةٌ، فأحبُّوا الانتقالَ من عِلْم اليقين إلى عين اليقين، على مثالِ ما سأل إبراهيمُ عليه السلام ربَّه: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيفَ تُحيِ المَوتَى قَالَ أَوَ لَم تُؤمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطمَئِنَّ قَلبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]، والمعلوم أنَّ العرب تضع الرؤيةَ مكان العلم، والعلمَ مكان الرؤية

فعلى مذهب الجمهور - إذن - أنَّ الحواريين لم يشكُّوا في قُدرة الله تعالى ولا في صدق نبوَّة رسولهم عليه السلام، وإنما سألوا آيةً حِسِّيَّةً تُقوِّي إيمانَهم، ويزدادون بها يقينًا وصدقًا خالصًا من شوائب الخواطر والهواجس النفسية.

وذهبت طائفةٌ من أهل العلم إلى ترجيح الشكِّ في قُدرة الله تعالى، والشكِّ في صدق رسالة نبيِّهم عليه الصلاة والسلام، وذلك في أوَّل معرفتهم قبل أن تستحكم معرفتُهم بالله تعالى، وفي شكِّهم في قدرة الله على إنزال مائدةٍ من السماء كُفرٌ، لذلك استتابهم ودعاهم إلى الإيمان به وبرسوله حيث قال: ﴿قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١١٢﴾ [المائدة]، وهو الذي رجَّحه الطبريُّ وقوَّاه.

قلت: وإن كان الصحيح من التفسيرين المذهب الأوَّل؛ لأنَّ السؤال عن استطاعته ينافي ما حكَوْه عن أنفسهم بقولهم: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ ١١١﴾ [المائدة]، إلَّا أنه ليس في كِلا التفسيرين السابقين أدنى مُسكةٍ في الاحتجاج بالآية على العذر بالجهل والشكِّ في مسائل التوحيد وأصول الإيمان.

د.ماجد كارم